

الإمامة في المفهوم الفاطمي

الموسم

الدكتور عبد المنعم ماجد

الإمامة هي أصل جمع نظم الحكم في الدولة الفاطمية في مصر^(١)، وكلمة «إمامة» التي كان يستعملها الشيعة بعامة والفاطميون بخاصة، لها مدلول كلمة «خلافة»، التي كان يستعملها -غالباً- الأمويون والعباسيون^(٢). ولكي نعرف نظام الإمامة: يجب أن نبحث أولاً عن أصلها: أو فيما يعرف «بالوصاية»، أو «تولية النبي لعلّي»^(٣).

وكلمة «الوصاية»، «تولية علي» جد كل إمام شيعي، مشتقة من فعل «أوصى» لتدل على معنى: ولي: وهي مثل القرآن، موحى بها من الله: حتى تكون الإمامة إرثاً في بيت علي، إلى يوم الدين^(٤). ولذا كانت «تولية علي» من الأمور التي يستند إليها الشيعة، وعلى الأخص الفاطميون، في تمسكهم بحقهم في الإمامة. فأصبحت بالنسبة لهم جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الفاطمية الأساسية، فيقولون: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وعلي ولي الله»^(٥).

ويعلق الشيعة أهمية كبرى على ظروف هذه التولية: فقد وجد محمد وعلي في منتصف الطريق ما بين مكة والمدينة، بالقرب من مكان يُعرف باسم «غدير خم»: وهنا أوصى النبي إلى علي في الإمامة من بعده^(٦).

ففي أثناء حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة بالقرب من غدير خم، قام محمد خطيباً في الحجيج، فقال لهم: «أستأوى بالمؤمنين من أنفسهم»^(٧)، قالوا: «بلى يا رسول الله».

(١) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٩٣. Ostorrog، p76: Le droit du Ca'ifat، أوردي: أحكام سلطانية، القاهرة ١٩٠٩، ص ٣.

(٢) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٤٢ و ٤٠٨.

(٣) النعمان، شرح، ورقة ١١: دعائم، ١ ص ٢٠ و ٥٢.

(٤) النعمان، دعائم، ١ ص ٥٢: غزالي، فضائح الباطنية، تحقيق Goldziher ص ٣٨.

(٥) مقريزي، خطط، ١ ص ٤٠٥ و ٢٠١: انظر:

Cat. Des: Lavoix Sauvare; monnaies musul. De la bibl. N, 3, P. 66, 67, 68, 69, 86 Mat. Pour: Sau vaire Servir a l'hist. de la Num; p 228.

(٦) النعمان، شرح، ورقة ٣ - ٢. كانت هذه الوصاية سبباً في ظهور عيد ورد في التقويم الفاطمي (١٨ من ذي الحجة).

قال: «فمن كنت مولاد فعلي مولاد، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله».

وتردد الكتب الفاطمية رواية أخرى مؤداها أن محمداً، في أثناء غزوة تبوك، قال لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»^(٧). فهذه الرواية أيضاً يرددها الشيعة غالباً: فقد كان من عادة الأنبياء أن يختاروا أوصياء من أسرهم^(٨). فكان علي وصي النبي، لأنه على حد قولهم، أحسن الناس بعد الرسول^(٩)، ومن «أفضل» الأئمة، ومن مادة النبي، وأنه «الكمال» ذاته^(١٠). وهكذا فإن الإمامة الفاطمية هي وراثة وصاية علي^(١١). ولكن، وإن كانت الروايات والكتب الفاطمية سردت تفاصيل تولية محمد لعلي، في إمامة المسلمين من بعده، إلا أنها أهملت ذكر التفاصيل الخاصة بتسلسل الأئمة، سلف خلفاء الفاطميين في مصر. فالنعمان الفقيه الفاطمي (م ٩٧٤/٣٦٣)، حاول أن يكتب تاريخ الدعوة الفاطمية من بدايتها^(١٢)، فتكلم أولاً عن دعوة ابن حوشب في اليمن في النصف الثاني من القرن الثالث، ثم عن حركة عبيد الله الشيعي في المغرب، حتى قيام خلافة عبيد الله المؤسس للدولة الفاطمية في إفريقية في (٩٠٩/٢٩٧). ويلاحظ أن النعمان لا يذكر شيئاً عن تعاقب الأئمة من جعفر الصادق (٧٦٥/١٤٨م) حتى عبيد الله، وهي الفترة التي استتروا^(١٣) فيها خوفاً من اضطهاد العباسيين. ولذا كانت هذه الفترة غير واضحة

(٧) النعمان، دعائهم، ١ ص ٢٥.

(٨) نفسه، ص ٥٢: تاج العقائد (A.Creed of the Fatimids) ص ٣٦.

(٩) النعمان، دعائهم، ١ ص ١٢ و ٢٨.

(١٠) تاج العقائد ص ٣٧.

(١١) يرفض الأمويون الاعتراف بادعاء علي في حقّه في الخلافة بعد تحكيم دومة الجندل في سنة ٤٠/٦٦٠، وهو التحكيم الذي كان من نتيجته تولية معاوية الخلافة وعزل علي (انظر: النعمان، شرح، ورقة ٦٨). ولكن فقهائ الفاطميين من جانبهم، قالوا ببطلان التحكيم، لأن علياً وأتباعه (أي الشيعة) كانوا قد ثاروا عليه (انظر: نفسه). كما أن جماعة أخرى متعصبة من المسلمين احتجت أيضاً على مبدأ التحكيم، بالنسبة لرئيس الأمة الإسلامية، لأنه في رأيها خطأ يخالف روح الإسلام. هذه الجماعة الثائرة، عرفت باسم فرقة الخوارج (أي الذين خرجوا على معاوية وعلي) أعلنت ألا حكم إلا لله أي لأمة المسلمين، وأخذوا على علي بن أبي طالب تنازله عن حقّه في خلافة نالها نتيجة لبيعة شرعية، فضي اعتقادهم يجب أن ينال الخلافة أفضل الناس عن طريق اختيار الأمة، وليس بالوراثة في أسرة معينة، فهم لا يرون أن تكون الخلافة احتكاراتاً لجنس معين مختار، أو حتى في قبيلة قريش التي جاء منها النبي، فعبد حبشي إذا استوفى شروطها أولى بها من أفضل سيد من سادات قريش (نفسه، ورقة ٨٥ وما بعدها؛ ودعائهم، ١ ص ٤٩، انظر Goldziher)؛

The Califate, p 184 Arnold; Le dogme, trad Felix Arin p 160 et suiv:

ومن ناحية أخرى، فإن المرجنة (أي الذين أرجأوا الاختلاف في أي شيء إلى الله حتى يحكم بينهم يوم القيامة): ترفض بقوة اعتبار دولة الأمويين غاصبة للخلافة، فكانت عقيدة المرجنة مخالفة للعقيدة التي تؤيد ادعاءات العلويين في حقهم الوراثي المقدس في حكم الأمة الإسلامية. (انظر: دعائهم، ١ ص ٤٩؛ Le dogme, p. 68 Gold). وحتى الزيدية، أتباع زيد بن علي بن الحسين (م ٧٤٣/١٢٥)، حفيد علي، وهي من فرقة الشيعة، لا تعتقد بوجود الإمامة إرثاً في أسرة معينة، وإنما عن طريق الانتخاب. فهي ترى أن الإمامة غير مقيدة بهذه الأسرة أو تلك، وإنما ينالها كل علوي مستوفٍ للشروط ومن ناحية أخرى لا تعترف الزيدية بحقوق مقدسة لعلي، ولا تعتبر الخلفاء الذين أتوا بعدهم مغتصبين؛ ولذا فهي أقرب الفرق الشيعية إلى السنة. انظر Gold: Le dogme, p. 200-201.

(١٢) افتتاح الدعوة، مخطوطة بجامعة فؤاد تحت رقم ب ١٧٦٦٥.

(١٣) انظر: Le dogme, p. 201. Gold.

المعالم في معظم كتب الإسماعيلية، وأيضا وعلى الخصوص في الكتب الفاطمية، وإن بقي مع ذلك اعتقاد الفاطميين الجوهري سليما: وهو أن الأئمة الذين ظهرُوا في إفريقية، ثم في مصر، من نسل علي وفاطمة، هم الورثة الشرعيون لوصاية علي، وأن حقهم في هذه الوراثة مقدس^(١٤). وقد كان الدفاع عن شرعية هذا الحق موضوعا لجدل ونقاش عنيف بين الشيعة وأعدائهم السنيين. ففي رأي الشيعة أن هذا الحق المقدس في الإمامة باق في سلالة علي حتى يوم القيامة. وهو منصوب عليه ليس فقط في وصاية محمد التاريخية لعلي، وإنما أيضا في القرآن، والحديث، وحتى بحكم المنطق السليم^(١٥). حقا، إن سور القرآن لا تذكر اسم علي، ولا أسماء الأئمة الفاطميين، إلا أن تفسير هذه السور (أي تأويلها) لعب دورا هاما في تأييد هذا الحق. فالأئمة كانوا يتوارثون المعنى الصحيح للقرآن، كما يتوارثون «الوصاية»^(١٦). وعلى ذلك، فهم يستطيعون أن يفسروا القرآن لصالحهم.

وعن الأحاديث فإنهم ردّوا منها عددا كبيرا لتأييد حقهم الشرعي في الخلافة، وإن رفض أعداؤهم السنيون الاعتراف بأغلب هذه الأحاديث^(١٧). ولكن الشيعة بعامة والفاطميين بخاصة يتهمون أعداءهم السنيين بالسكوت عن الأحاديث التي تبين حقهم في الإمامة^(١٨).

أما عن وجوب إمامتهم بحكم العقل، فإن فقهاء الفاطميين قاطبة^(١٩) أجمعوا على التمسك بشرعية تولية علي وخلفائه إمامة المسلمين، ولكن حملوا بشدة على مبدأ الاختيار الذي يقول به الفقهاء السنيون. فبعض علماء الفاطميين، يرون أنه لكي تُعطى البيعة للإمام بإجماع الناس، فإن الإمامة نفسها يجب أن تكون قد أعطيت ببيعة مجمعة عليها، وإلا فإن هذه البيعة لا تكون شرعية، ولا يمكن أن تكون لأحد، ما دام لا يملكها أحد^(٢٠). ثم إن اختيار الإمام المستوفي للكمال في الأوصاف والأحوال لمنصب الإمامة، لا يتمسك به السنيون دائما لأنهم لا يجدون الإمام المنتخب الذي يستوفي

(١٤) إن الاعتقاد في أنهم الأئمة «المكلفون من الله لحكم الأمة الإسلامية» في رأي Canard كان بالنسبة للفاطميين أساس حقهم في الخلافة. وهو اعتقاد أقوى من الدين، الذي أدى إلى الفتوح الأولى، ومن مطامع الأمويين الشخصية، ومن استغلال العباسيين الاستياء ضد الأمويين، ومن الشعبية الإيرانية وتشيعها. وحتى من اعتقاد العلويين الآخرين بشرعية حقهم في الإمامة. انظر: Canard: L.

L'imperialisme des Fatimides, Annales de L'Inst. Or. 6, 1942-7 p 158

هذا، وإن الاعتقاد في تكليفهم من الله المذكور في الرسالة التي وجهها الخليفة المعز إلى زعيم القرامطة: الحسن بن أحمد، كما بين ذلك Goldziher انظر. الرسالة في المقرئ. اتعاظ القدس ١٩٠٨، ص ١٣٤-١٤٣. فوجود الأئمة الفاطميين قبل خلق العالم لكي يحكموا. قد يؤول من معنى القرآن نفسه (سورة ٢٤ آية ٣٥) انظر: Gold: (مقدمة) Streitschrift.

(١٥) النعمان، دعائم، ١ ص ٤٨ وما بعدها.

(١٦) نفسه، ص ٦٧.

(١٧) الغزالي، فضائح الباطنية، ص ١٢: انظر Die Renaissance: Mez، ترجمة أبو ريعة، ١ ص ١٢١.

(١٨) النعمان، شرح، ورقة ٦٨.

(١٩) نفسه، ورقة ٢٦ وما بعدها.

(٢٠) نفسه، ورقة ٢٨: انظر. الهداية الامرية (Being an epistle of the tenth fatimid calife al- Amir)، تحقيق فيضي (Fyze) ص ٧. (وهذه الرسالة منشورة في هذا العدد من مجلة الموسم)

الشروط. ولذا كانوا يلجأون غالباً إلى التولية عن طريق الوراثة: فالعباسيون أنفسهم، يشترطون أن يكون الخليفة من نسل أسرة العباس^(٢١). وفكرة أن الله لم يترك اختيار الإمام للناس، يرددها ابن خلدون بوضوح بقوله^(٢٢): إن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة؛ بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفالها وتفويضها إلى الناس.

على كل حال، في رأي فقهاء الفاطميين، كان ميراث الإمامة المقدس يتم «بالنص»، أي «الدلالة الصريحة» للإمام على من سيخلفه^(٢٣). فكلمة نص (دلالة) مشتقة من فعل نص (دل). والنص مبدأ جوهرى يوضح لنا الطريقة التي عالج بها العقيدة الفاطمية تعاقب أئمتها بعد علي، حتى الإمام الحاضر. فحسب رأي فقهاء المذهب الفاطمي، يكون كل إمام غير أئمة الفاطميين مغتصباً للإمامة، لأن النص مظهر لإرادة الله نفسها، التي يجب أن تخضع لها كل الآراء المختلفة في تعيين رئيس الأمة. فهكذا تستمر - حسب إرادة الله - تولية خلفاء محمد التي ظهرت في وصايته لعلي^(٢٤) وسلالته، حتى يوم القيامة.

فنص الإمام على خلفه أمر لا يهم أحداً غيره^(٢٥)، فليس للأمة، ولا لأي فرد أن يطلب سبب هذه التولية. ومع ذلك ففي اعتقاد علماء الدين الفاطميين، كان يلزم أن يكون الشخص المنصوص عليه من سلالة علي وزوجته فاطمة، أو كما يقول ناصري خسرو، يشترط أن يكون علوياً من آل إبراهيم أهل البيت^(٢٦).

إذاً، خلاف كونه علوياً، فإن النص يتوقف فقط على إرادة الإمام وحده، وأنه لا يوجد غير هذا الشرط بالنسبة للإمام المنصوص عليه، على عكس ما عند السنيين الذين يطلبون شروطاً لازمة في شخص الخليفة المنتخب بإجماع الأمة^(٢٧).

فلا توجد عندهم - على الإطلاق - شروط تتعلق بعمر الإمام^(٢٨)؛ فكثير من الأئمة الفاطميين في مصر، تولوا الإمامة صغاراً. فكان عمر الحاكم إحدى عشرة سنة ونصف^(٢٩)؛ والظاهر ست عشرة سنة^(٣٠)؛ والمستنصر أقل من ثماني سنوات^(٣١)؛ والمستعلي أزيد من عشرين سنة^(٣٢)؛ والأمر

(٢١) الهداية، ص ٩: انظر Arnold: the Caliphate, p. ٥٢..

(٢٢) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٥٥.

(٢٣) الهداية، ص ٧: النعمان، دعائم، ١ ص ٥٤: رسائل المستنصر: (٣٥) ورقة ١٦١: (٤٣) ورقة ٢٢٩: مقدمة، ١ ص ٥٣٧: غزالي، فضائح الباطنية، ص ٣٧ و ٦٦.

(٢٤) النعمان، دعائم، ١ ص ٥٢: رسائل المستنصر: (٣٥) ورقة ١٦٠.

(٢٥) رسائل المستنصر: (٣٥) ورقة ١٦١: الهداية، ص ٣٦.

(٢٦) انظر Hassab : Nasiri Husrau, p257.

(٢٧) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٤٩: الماوردى، أحكام سلطانية، ص ٤ ما بعدها.

(٢٨) رسائل المستنصر: (٣٧) ورقة ١٩٣.

(٢٩) ابن تغري بردي، تحقيق Popper، ٢ ص ٦٢.

(٣٠) نفسه، ٢ ص ١٢٩.

(٣١) نفسه، ٢ ص ١٦٨: رسائل المستنصر: (٣٧) ورقة ١٩٣.

(٣٢) ابن تغري بردي، ٢ ص ٢٩٨.

خمسا^(٣٣)؛ والظافر سبع عشرة^(٣٤)؛ والفائز خمسا^(٣٥)؛ والعاقد إحدى عشرة^(٣٦).

وفوق ذلك، لا يقوم النص في الإمامة على أساس استخلاف الابن الأكبر، فالإمام يستطيع أن ينص على ابن له، ثم يعزله ويعين غيره بدلا منه^(٣٧). فنص الإمام على خلفه يتم بناء على إرادته، وإن كانت معارفه الإلهية هي التي تُوحي إليه بتولية أو عزل من يقع اختياره عليه. ولقد تعاقب الأئمة الفاطميون في مصر من أب إلى ابن حتى الإمام السادس: الأمر. ولكن منذ هذا الإمام، اختلف ترتيب التعاقب في الإمامة، لأن الأمر مات قبل ولادة خلفه^(٣٨)؛ وقد حدث الاضطراب مرة أخرى، عند موت الفائز الذي لم يكن له ولد. وفي الحالتين فإن ابني عم هذين الإمامين هما اللذان حازا الإمامة: فتولى عبد المجيد بعد الأمر، والعاقد بعد الفائز.

هذه «الدلالة الصريحة» أو «النص» غير واضحة في الروايات الفاطمية، فلنسا ندري، إن كان النص عبارة عن أمر مكتوب أو وصية، أو أمر شفوي، أو حتى تلميح بسيط من جانب الإمام لخلفه الذي ينص عليه بهذه الطريقة.

ففي كتاب دعائم الإسلام، يحتفظ لنا النعمان بوصية علي إلى الحسن^(٣٩)، تصح أن تكون دليلاً على النص، وهي تشتمل على نصائح وأسرار. ومن ناحية أخرى، هذا النص قد يكون أيضاً على ما يظهر، أمراً شفوياً^(٤٠) له قيمة الأمر الكتابي، فليس لدينا أية وصية مكتوبة من الأئمة الفاطميين في مصر إلى خلفائهم: مما يدعون إلى الظن بأن النص كان شفوياً في الغالب. وأخيراً يكفي، أن يظهر الإمام عطفه على خلفه، أو أن يلمح له تلميحاً بسيطاً لكي يتم عليه النص^(٤١). فلدينا من رسائل الإمام المستنصر رسالتان على هذا النوع من النص، وهما مكتوبتان من قبل المستعلي وأمه، إلى ملكة اليمن سيّدة حرة، حيث يشرعان فيهما تلميح المستنصر بالإمامة إلى المستعلي الابن الأصغر، دون نزار الابن الأكبر. وعلاوة على ذلك، نجد فحوى هذا التلميح من المستنصر إلى المستعلي، في رسالة أخرى من عهد الأمر، ابن المستعلي^(٤٢).

ولدينا - لحسن الحظ - مثل واضح على النص وظروفه. فقد نص المعز على خلفه^(٤٣)، وأراد أن يعلن لشيعته الإمام من بعده. فأحضر أحد أولاده، ووجه الكلام إلى شيعته قائلاً: «هذه عصاي

(٣٣) نفسه، ٢، ص ٣٢٧.

(٣٤) نفسه، ٣، ص ٤٦.

(٣٥) نفسه، ٣، ص ٦٢.

(٣٦) نفسه، ٣، ص ٨٤.

(٣٧) رسائل المستنصر: (٣٥) ورقة ١٦٢: الهداية، ص ٢٠.

(٣٨) ابن تغري بردي، ٣، ص ٨٦ - ٨٧: السيوطي، خلفاء، ص ٩.

(٣٩) The Ismaili law of wills, pro.: Fyze (٣٩)

(٤٠) الهداية، ص ١٢.

(٤١) رسائل المستنصر: (٣٥) ورقة ١٦١: (٤٣) ورقة ٢٢٩.

(٤٢) الهداية، ص ١٤: ابن ميسر، ص ٦٧.

(٤٣) كان للمعز أربعة أولاد: عقيل (م ٣٧٤ / ١٠٨١)، وتميم (م ٣٨٦ / ٩٧٨ أو ٣٧٤ / ١٠٧١). والعزير (خليفة)، وعبد الله، أنظر، ابن

ميسر، ص ٤٨: أنظر.

أتوكاً عليها»، فأجابوا: «سمعنا وأطعنا»، ثم خرجوا من عنده، وهم يعتقدون أن هذا الابن سيكون الإمام من بعده. فلما كان اليوم التالي، جمع المعز من جديد شيعته، وأحضر لهم ولداً آخر من أولاده وقال لهم: «هذه عصاي أتوكاً عليها وأهش بها على غنمي»، فقالوا: «سمعنا وأطعنا»، فخرجوا من عنده هذه المرة أيضاً، وهم يعتقدون أن هذا الابن هو خليفة المعز. وأخيراً كان اليوم الثالث، دعا العزيز (ثاني خليفة فاطمي في مصر)، وقال لشيعته: «هذه عصاي أتوكاً عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى»، فخرجوا في هذه المرة، ولم يشكوا في أن هذا الأخير، هو الذي سيكون حقا الإمام من بعده.

وهذا النص - في الواقع - لم يكن تولية عادية من الإمام لخلفه: بل يمنح أيضاً لهذا الأخير طبيعة روحية، تنتقل إليه بالوراثة^(٤٤). فكانت نفس الإمام بأسرارها المكنونة وصفاتها الإلهية، تنتقل ساعة موته، بالحلول، في الإمام الذي سيخلفه: فهذا عند الفاطميين، كان ميراثاً مميزاً لإمامتهم.

وقد قيل بأن النبي نقل مباشرة إلى علي بعض علومه الإلهية^(٤٥)، فكان علي بدوره أن ينقلها إلى ابنه الوريث، فترتب على ذلك انتقال هذه العلوم بالوراثة من إمام إلى آخر، على كر العصور. فنجد في وصية علي للحسن - الواردة في كتاب دعائم الإسلام - ذكر لإرث من كتب وأسرار. جاء فيها على لسان علي: «أنت الإمام من بعدي. وارث علمي»^(٤٦). ويحكي الأمر أن والده المستعلي. أسر إليه ساعة موته، ما كان قد ناله عن جده، فيقول: «وأطلعني من العلوم على السر المكنون، وأفضى إلي من الحكمة بالغامض المصون»^(٤٧).

وفي الحقيقة، لا نعرف بالضبط ما هي هذه العلوم أو هذه الأسرار، وما هي محتويات هذه الكتب، ولكننا نظن - بدون مداراة - أن هذه العلوم الفاطمية تشتمل خاصة على تفسير القرآن (أو ما يعرف بعلم التأويل): فكل كتب الدعوة الفاطمية تشير إلى تأويل القرآن. وحسب وصية علي للحسن، تحتوي هذه الكتب أيضاً، على معارف جغرافية، وعلى أسماء للملوك، وحتى على أسماء بعض الدعاة حتى يوم البعث. كذلك يحدثنا المؤرخون^(٤٨)، نقلاً عن الرواة، بوجود نسخة من القرآن، في القاهرة، جمعها علي وعلق عليها بنفسه. ويقول المعز - بصدده علم الأئمة هذا - إنه كان يتضاعف ست مرات، عند نقله إلى الإمام الجديد^(٤٩)، ومع ذلك، فإن التاريخ يبين لنا أن بعض الأئمة يهتمون بالعلوم، وأن الآخرين لا يهتمون بها.

كذلك، نجهل ما كانت عليه حال الشخص المنصوص عليه من الناحية الزمنية، ولكن على

(٤٤) النعمان، المجالس، ١ ورقة ٤٥: ٢ و ٤٦ و ٥٣٩: رسائل المستنصر: (٣٥) ورقة ١٦١: غزالي، فضائح الباطنية، ص ٣٧.

(٤٥) Ismaili law, p 35. : Fyze

(٤٦) نفسه، ص ٣٥ و ٤٥.

(٤٧) السيوطي، حسن المحاضرة، القاهرة ١٣٢٧، ٢ ص ١٥.

(٤٨) صبح، ٣ ص ٥٢٢: مقريزي، خطط، ١ ص ٤٠٨ و ٣ ص ٤.

(٤٩) النعمان، المجالس، ١ ورقة ١٧٨.

حسب رأي مؤرخي العصر، كان من اللازم أن يُنعت خلف الإمام بلقب: «ولي عهد المؤمنين»^(٥٠). ويبرز الفاطميون المعنى الذي تدل عليه كلمة «مؤمن»، فهذه الكلمة تدل على (الإيمان)، بينما كلمة «مسلم» لا تدل إلا على (الإسلام). فالنص على «عبد الرحمن»^(٥١) في الإمامة، كولي عهد للخليفة الحاكم، لم يعتبر شرعياً، لأن عبد الرحمن نُعت بلقب «ولي عهد المسلمين» وليس بلقب «ولي عهد المؤمنين». إن (الإيمان) هو الذي يهتم في العقيدة الفاطمية^(٥٢).

وأنا لا نعرف أيضاً، الرسوم المتبعة في مناسبة النص على خلف الإمام، وإن كان أكبر الظن أن الإمام هو الذي ينال البيعة لولي عهده^(٥٣). فالعز عندما نص عليه والده، خرج مكتوباً بموكب عظيم^(٥٤)؛ كما أن الدولة قامت بتوزيع أموال طائلة وخلع سنوية كثيرة على كبار الموظفين؛ كذلك فرق الطعام على الناس^(٥٥).

على كل حال، أوجد مبدأ النص اضطراباً كبيراً بين الشيعة، فعدد لا يحصى من فرق وطوائف الشيعة نشأ نتيجة للنص الذي لم يتفق عليه. ويدين الفاطميون أنفسهم بوجودهم، إلى مثل هذا الانشقاق؛ فهم جعلوا النص من جعفر الصادق (م ١٤٨/٧٦٥) إلى ابنه إسماعيل، بدلاً من ابنه موسى الكاظم. فتسمى الفاطميون باسم الإسماعيلية^(٥٦)؛ كما تسمى أنصار موسى بالإمامية، وذلك بسبب اعتقادهم في إمامة موسى الكاظم.

وبسبب النص، انقسم الفاطميون أيضاً في مصر على أنفسهم، إلى قسمين رئيسيين: النزارية أنصار نزار، الابن الأكبر للمستنصر؛ والمستعلية أنصار المستعلي، الابن الأصغر^(٥٧). فقد قيل بأن الحسن الصباح لما جاء مصر في سنة ٤٧١/١٠٧٨، طلب من المستنصر أن ينص على خلفه في الإمامة. وحسب قول حسن، فإن المستنصر أفهمه بأن نزاراً سيكون ولي عهده^(٥٨). ولكن بعد موت المستنصر، فإن المستعلي الابن الأصغر، هو الذي تولى الخلافة، ولذلك فإن الحسن وأتباعه تمسكوا بإمامة نزار، وأسسوا فرقة منشقة. وما زالت هاتان الطائفتان موجودتين إلى الآن، ويتمثلان في الهند في طائفتي: النزارية باسم خوجة، والمستعلية باسم البهرة والدواية والسليمانية.

وعلاوة على النص، أوجد الفاطميون مبدأ آخر هو «الولاية» بمعنى الطاعة للإمام، وذلك لتأييد قوة النص^(٥٩). فالولاية في الواقع، فرض جوهرى من فروض الدين والمجتمع؛ حيث تعتبر

(٥٠) الهداية، ص ١٣.

(٥١) نفسه: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨، ص ٦٩.

(٥٢) النعمان، دعائم، ١ ص ١٥.

(٥٣) ابن القلانسي، ص ١٥.

(٥٤) النعمان، المجالس، ١ ص ٩.

(٥٥) مقريزي، خطط، ١ ص ٣٥٥ س ١٢ - ١٣.

(٥٦) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٦٢ - ٣ ص ١٣، ص ٢٣٥.

(٥٧) صبح، ١٣، ص ٢٣٦: خطط، ١ ص ٣٥٧.

(٥٨) ابن الأثير، الكامل، تحقيق Torenberg، ٩ ص ٣٠٢.

(٥٩) النعمان، دعائم، ١ ص ٣.

(الدعامة) الأولى، من بين سبع (دعائم)، على أساسها بني الإسلام الفاطمي^(٦٠)؛ وهي: الولاية، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد. فالخضوع للإمام ضرورة دينية مثلما هو ضرورة منطقية، ولا ريب، فإن الفرض الديني، هو الناحية الأساسية في العقيدة الفاطمية. ففي رأي الفاطميين: جميع سور القرآن تدعو إلى الخضوع للإمام، ولما كان الأئمة يملكون ناصية تفسير القرآن، فإنهم يؤولون جميع السور؛ على أساس وجوب الطاعة لهم. فيستند الفاطميون على الخصوص إلى هذه الآية: «يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم»^(٦١)، وليس هناك شك، في أن المقصود بأولي الأمور - في رأيهم - هم الأئمة الفاطميون^(٦٢).

وتوجد أحاديث تُنسب إلى النبي وإلى الأئمة، تدعو إلى طاعة الإمام. فمن قول الرسول: «من مات لا يعرف إمام دهره حياً، مات ميتة جاهلية»^(٦٣). ومن قول علي في وصيته إلى ابنه الحسن: «قرن الله طاعتنا بطاعته وطاعة رسوله»^(٦٤). ويضيف الإمام جعفر فيقول: «بنا يعبد الله، وبنا يُطاع الله، وبنا يُعصى الله، فمن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله»^(٦٥). فهذه الأحاديث، وهذه الأقوال المنسوبة للأئمة، ذكرت على الأخص لتأييد هذه الطاعة، التي هي طاعة لله، ذلك لأن الأئمة مظهر للإرادة الإلهية. فهذا الواجب إذا فرض مطلق على المسلمين^(٦٦)، ومن ذلك، يستنبط Goldziher 42^(٦٧)، أن الشيعة مذهب أوتقراطي، لأن الذي لا يقر بهذه الطاعة يعتبر كافراً^(٦٨).

ومن ناحية أخرى، أن وجوب طاعة الإمام - في رأي الفاطميين - مبدأ مدرك بالعقل، ذلك لأن الإمام هو أساس الوحدة الاجتماعية والدينية للأمة الإسلامية^(٦٩). ولا ريب، أن أئمة الفاطميين كانوا يحكمون شعوباً سنية، إلا أن الولاء لأولي الأمر كان هو أيضاً من الواجبات الدينية عند السنيين. فكان البويهيون (منتصف القرن العاشر)، مع العلم بأنهم شيعة، يتحكمون في الإمبراطورية العباسية وخلفائها السنيين.

وقد تمسك الفاطميون بطاعة الإمام المطلقة لكي يقووا سلطتهم الزمنية، وليجعلوها مقدسة رهيبة. ولذا يرى علماء الفاطميين أن هذه «الولاية» ليست جزئية: لأنها يجب أن

(٦٠) نفسه: شرح، ورقة ٢٩: انظر. p. ٧٠-٧١.

(٦١) سورة ٤ آية ٥٩: النعمان، مجالس. ١ ورقة ٣٦٥: دعائم ١، ص ٢٥.

(٦٢) مجالس. ١ ورقة ٣٦٥.

(٦٣) دعائم. ١ ص ٣١.

(٦٤) Fyze: Ismaili law, p 42.

(٦٥) النعمان، دعائم. ١ ص ٧٢: انظر. كامل حسين، كتاب الهممة، (المقدمة)، ص ١٩.

(٦٦) تاج العقائد، ص ٩.

(٦٧) Le dogme, P152 انظر.

(٦٨) تاج العقائد، ص ٤٣ و ٤٩.

(٦٩) خشاب: Nasiri Husrau, 256-7.

تشمل جميع الأمة الإسلامية^(٧٠)، وقد أطلقوا على المكان الذي توجد فيه هذه الأمة الإسلامية التسمية العامة «بدار الإسلام». وعلى ذلك، فلا يجب أن يطاع فيها غير سلطة شرعية واحدة؛ هي سلطة الإمام الفاطمي؛ فكان إمكان وجود إمامين أو خليفتين في وقت واحد، ليس له مكان في العقيدة الفاطمية. فيرى ناصري خسرو: أن حكم هذه الأمة ملك للإمام؛ وليس لغيره أي حق فيه^(٧١). ولم يجد هذا الرأي قبولاً من السنيين، على الأخص حينما اتسعت رقعة الإسلام، فأصبح من الصعب حكمها بشخص واحد، وفي هذه الحالة، فإنهم يسمحون بعقد شرعي مع شخصين، في وقت واحد^(٧٢).

على أن إقرار الولاية؛ يتطلب القيام أيضاً بشرائط البيعة، وكلمة ببيعة تعني «العهد على الطاعة»، وهي مظهر للولاية، والتزام بها^(٧٣). فيجب على كل فرد من أسرة الإمام، ومن وجوه دولته الدخول فيها، لأنها برهان لولاء كل مؤمن، وحتى كل مسلم^(٧٤). ولا يند من ذلك، النساء اللاتي يجب أن يشتركن في عقد البيعة للإمام^(٧٥). فيقول جعفر - جد الفاطميين - في هذا الصدد، نقلاً عن الرسول: «من مات لا يعرف إمام دهره، مات ميتة جاهلية»^(٧٦).

على كل حال، هذا العهد على الطاعة لم يكن نصاً يُقرأ، وإنما كان يُعبر عنه مجازاً: بتقبيل الأرض بين يدي الخليفة، أو بتقبيل اليد أو الرجل أو الذيل^(٧٧)؛ وأن يقول الشخص هذه العبارة: «السلام على أمير المؤمنين»^(٧٨). فكان تقبيل الأرض أمام الإمام يرمز إلى الإقرار بالخضوع، ويدل أيضاً على انتخاب الإمام الجديد، واعتراف الأمة الإسلامية به. ويؤكد النعمان أن السجود بين يدي الأئمة، لا يدل على العبادة، وإنما على الخضوع^(٧٩).

(٧٠) نفسه، ص ٢٥٨: النعمان، مجالس، ٢ ورقة ٤٧٨.

(٧١) خشاب: Nasir Husqu P 256. يقول ابن هانئ بهذا الخصوص:

وأنت معد وارث الأرض كلها
فقد حم مقدور وقد خط مكتوب
ويقول أيضاً:

ألا تلکم الأرض العريضة أصبحت
وما لبني العباس في عرضها فتر

أنظر، ديوان، تحقيق زيادة، بيروت ١٣٨٦، ص ٦٤: ٦٦، ١١ ص ١٨٨، Canard: Anuales, P159. وكذلك في أول خطبة للجمعة في الفسطاط في ٣٥٨ / ٩٦٩. بدأ الخطيب بالصلاة على المعز فقال: (واجمع الأمة على طاعته... وورثه مشارق الأرض ومغاربها... فإنك تقول وقولك الحق: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون). مقريري، اتعاظ، ص ٧٥ - ٧٦: أنظر: Anuales P 159 Canard: حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر، ص ١٢٠ - ١٢١: Vle du: Quatremere calife Mucizz, J. A, 1836,3,P.55.

(٧٢) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٤٧ - ٨.

(٧٣) نفسه، ١ ص ٣٧٦.

(٧٤) تاج العقائد، ص ٤٣.

(٧٥) نفسه.

(٧٦) النعمان، دعائم، ١ ص ٣٤.

(٧٧) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٧٧.

(٧٨) ابن ميسر، ص ٥١.

(٧٩) النعمان، مجالس، ١ ص ٢٢ - ٢٨.

ولسنا نجد معلومات وافية عن الرسوم المتبعة في مبايعة الخلفاء الفاطميين، في مصر. ومهما يكن، فإننا نعتقد بأنه لم يك ثمة فرق كبير بين الرسوم الفاطمية، وما كان متبعاً في مبايعة غيرهم من الخلفاء، وعلى الأخص العباسيين. ومع ذلك، استطعنا أن نجمع من كتب التاريخ بعض النثف التي تسمح لنا بتصوّر الرسوم المتبعة في مثل هذه المناسبة، والتي تبين حب الفاطميين للأبهة. فكانت الحفلة تقام بطبيعة الحال بالقصر الكبير، فيعتلي الخليفة سريراً «عرشاً»، وقد لبس لهذه المناسبة تاجاً، حتى وإن كان لا يزال طفلاً^(٨٠)؛ وهذا التاج - في الواقع - لم يكن غير عمامة مرصعة بالأحجار الكريمة، يلبسها الخليفة في جميع الحفلات الفاطمية^(٨١). وكان على قاضي القضاة، أو داعي الدعاة: أن يقوم بمراسيم البيعة^(٨٢)؛ فيتقدم رجال الدولة بين يدي الخليفة لتقبيل الأرض كرمز للخضوع، فكان أفراد أسرة الإمام أول من يقدمون خضوعهم^(٨٣). ولكن حينما يكون الإمام صغيراً جداً، فإن وزير التفويض وهو الوصي عليه، كان يأخذ له البيعة بنفسه، ثم يحمله، أمام الجماهير بين ذراعيه؛ كما فعل الوزير عباس مع الخليفة الفائز^(٨٤). وقد جرت العادة آنذا: أن تُصدّر رسائل إلى حكام الخلافة، واصفة ومعلنة - في عبارات مزوقة - خبر تولية الإمام^(٨٥)؛ وأن يدعى له على المنابر في خطبة صلاة الجمعة؛ فهكذا كان الشأن عند بيعة الخليفة في سائر الدول الإسلامية^(٨٦)؛ وأن ينقش اسمه على قطع النقود، ويطرز على رايات الجيش وبنوده^(٨٧). وزيادة على ذلك، كان الفاطميون يتمسكون بشدة بأن يخطب للإمام وأبائه، في الحرمين المعظمين - مكة والمدينة -^(٨٨)؛ حيث أنهما قبلة جميع المسلمين. ولذلك ظهرت دائماً منافسة شديدة بين الإمامة الفاطمية والخلافة العباسية، فكانت كل منهما تسعى إلى الاستيلاء على الأماكن المقدسة بالحجاز، لتوطيد نفوذها في «دار الإسلام»^(٨٩). وكان للإمام المنصوص عليه سلطات واسعة، أهمها: السلطة الدينية، لأن الإمامة هي القاعدة التي يركز عليها الدين كله. وقد عبر ابن خلدون - المؤرخ الكبير - عن ذلك، بأن الإمام ضروري لتعريف الناس أصول دينهم الذي أنزله الله على الرسول محمد. ففي رأيه: أن الله قد خلق الناس ليستعدوا لأخرتهم، بالقيام بالفروض التي أمرهم بها، فوجود نبي أو خليفة أمر ضروري؛ وبدونه يصير الناس فوضى بدون هداية^(٩٠).

(٨٠) ابن ميسر، ص ٥٢ - ٥٣.

(٨١) ابن خلكان، ٢ ص ٢٢٦.

(٨٢) ابن ميسر، ص ٦٧؛ ابن تغري بردى. تحقيق Popper، ٢ ص ٢٩٩.

(٨٣) رسائل المستنصر: (٣٧) ورقة ١٦٢: (٤٣) ورقة ١٣٠.

(٨٤) ابن خلكان، ١ ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٨٥) رسائل المستنصر: (٣٥): (٤٣)، مثل تولية الإمام المستعلي.

(٨٦) ابن خلدون، المقدمة، ٢ ص ٦٣.

(٨٧) السيوطي، خلفاء، ص ١٦٦.

(٨٨) رسائل المستنصر: (٥٨) ورقة ٣١٥ - ٣١٦؛ ابن خلدون، المقدمة، ١ ص ٤١٠.

(٨٩) رسائل المستنصر: (٣) و(٤) و(٧) و(١٢).

(٩٠) ابن خلدون، مقدمة، ص ٣٤٣ - ٤؛ أنظر. Prolegomenes, I, P385-6.

ويؤكد ناصري خسرو - من مؤيدي هذا الرأي - بقوله: إنه وإن كان الإمام واجباً وجوده للدنيا وليس للدين، فإن الدين لا لزوم له بدون إمام؛ وإذا كان وجوده قوام الدين وليس للدنيا، فإن الإمامة لا لزوم لها^(٩١).

ولقد كان الفاطميون يخصّون أئمتهم بالمعرفة بكل أصول الدين، لأنهم وحدهم يستطيعون تفسير المعنى الصحيح للقرآن، فهم يعرفون المعنى الباطن للدين، والمعنى المؤول، بل وتأويل هذا المعنى المؤول^(٩٢). وعلى ذلك يكون الإمام جزءاً لا يتجزأ من العقائد الإسلامية، لأن الدين لا يكون تاماً بدون علم الإمام^(٩٣). والواقع، أن هذا العلم جعل الإمام الفاطمي في مرتبة فوق مرتبة غيره من البشر، وخلع عليه صفة العصمة^(٩٤)، التي تأتيه من معارفه العالية. فعلى عكس العقيدة السنية، تخص العقيدة الفاطمية الإمامة بدور هام في الناحية الدينية.

لذلك كان على الإمام أن يساعد الناس في سبر غور أصول دينهم؛ وهذا من أول واجباته الهامة. فالخليفة الفاطمي بنفسه يعين الدعاة من قبله، ويكلفهم بنشر العقيدة التي يشرحها لهم. وهو وحده المسؤول عن صحتها. فيقوم الدعاة بتقديم التفسير أو التأويل للنص القرآني إلى الإمام، قبل قراءته على المستجيبين أو على الحاضرين في مجالس الدعوة أو في المساجد، فإذا نال موافقته وضع عليه علامته^(٩٥)، فيصبح الكلام الذي يلقي مقدساً غير قابل للتبديل أو للتغيير. وأحياناً أخرى، كان الإمام يرتب في قصره محاضرات أو مجالس يلقيها بنفسه^(٩٦). وغير ذلك، فإنه يدعو العلماء إلى تأليف الكتب عن عقائد المذهب الفاطمي^(٩٧)؛ فقد طلب المعز من النعمان الاطلاع على العلوم الخاصة بأهل البيت، والتأكد من صحة النصوص التي تنقل عنهم؛ فكان النعمان في مؤلفاته عن الأئمة دائم الخوف من أن يرتكب غلطاً^(٩٨)، وكان المعز يراجع بعناية جميع المؤلفات التي تقدم إليه^(٩٩). كذلك كان على الإمام أن يقوم بواجب الجهاد ضد الكفار، وهو فرض صريح في العقيدة الفاطمية^(١٠٠).

و الإمام أيضاً جزء غير منفصل من الشريعة؛ فوجوده لازم لوجود الشرائع القانونية نفسها. فكان الإمام - بسبب معارفه في الدين - يعتبر مستودعاً للشرائع الإسلامية، والمجتهد المطلق^(١٠١) في الشريعة، القادر على استنباط الأحكام وتفسيرها، وغير الإمام لا يملك هذا الحق.

(٩١) خشاب: Nasiri Husrau, P256.

(٩٢) انظر، Dozy: Essai sur L'Histoire de l'Islamisme: ترجمة من الهولندية Chauvin، ص ٢٦٤.

(٩٣) النعمان، مجالس، ٢ ورقة ٣٧٣: عمارة، ديوان، تحقيق Derenbourg، ١ ص ٣٣.

(٩٤) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٥٥: غزالي، فضائح الباطنية، ص ٨.

(٩٥) مقرئزي، خطط، ١ ص ٣٩١ س ٩ - ١٠.

(٩٦) انظر، خشاب، سفر نامه، القاهرة ١٩٤٥: (مقدمة) ص (١).

(٩٧) النعمان، مجالس، ١ ورقة ١١٥، ورقة ٢٨٨.

(٩٨) نفسه، ١ ورقة ١١٢.

(٩٩) نفسه، ١ ورقة ٢٨٨.

(١٠٠) النعمان، دعائم، ١ ص ٣٥٩ - ٤٦٦.

(١٠١) انظر، Le Califat, p. 52.: Sanhoury.

وفي الجملة كان الأئمة الفاطميون يميلون إلى الاحتفاظ بمظهرهم كرؤساء للدين أكثر منهم كملوك، فهم قبل كل شيء زعماء المذهب الفاطمي، إحدى فرق الشيعة. فكان الإمام يشترك في كل الأعياد الدينية والشيعة على الخصوص، فيخرج في حفل رسمي للصلاة بالناس وللخطبة في الجمعة^(١٠٢). فهذا في رأي ناصري خُسر، كان من شأنه أن يعلي مرتبة الإمامة.

أما عن الصفة الروحية للأئمة الفاطميين، فإنها جاءتهم من تولية النبي لعلي وسلالته إمامة المسلمين، ومن معارف وأسرار نقلها محمد إلى ابن عمه وإلى عقبه. ففي رأي الفاطميين، كانت للأئمة صفات خارقة تجعلهم فوق مرتبة البشر^(١٠٣). فكانت من صفاتهم العصمة؛ وهي صفة تنسبها السنة إلى الأنبياء وحدهم. ويقرر ابن خلدون في هذا الصدد، أن الإمام معصوم من جميع الخطايا: الكبائر والصغائر^(١٠٤).

وعلى هذا: فإن شخص الإمام مقدس، ولدينا أمثلة عديدة عن صفاته الروحية. فالأفاز الإمام - في رأي النعمان^(١٠٥) - تكون ألفاظاً مقدسة. كالأفاز القرآن، في الجزالة والفخامة والبيان، يعجز أن يحكيها البشر. وكانت ملابس الإمام هي الأخرى مقدسة^(١٠٦)، فكان على الولاة وغيرهم أن يقفوا احتراماً عند استلامهم ملابس الخليفة من المناسج؛ وكان من التبرك للشخص، أن يلبس ثوباً من الملابس التي كان قد لبسها الخليفة^(١٠٧). أما في أثناء الأعياد، فكان التجار يزينون الطرق التي قد يمر منها موكب الإمام بأشياء من تجارتهم، لطلب البركة من نظرتهم^(١٠٨)؛ وكان الناس - عند مروره - يخرجون سجداً لتقبيل الأرض، ويذكرون اسمه عند قيامهم^(١٠٩). وكذلك جرت العادة أن يعطي الإمام بركته للجيش وللأسطول عند ذهابهما للحرب^(١١٠)، أو عند القدوم منها. ثم إن الإمام كان مثل بابا النصارى، له القدرة على أن يشفع للمؤمنين خطاياهم^(١١١). والظاهر أن علماء الدين من الشيعة قد بالغوا - بصفة عامة - في سلطة الإمام الروحية.

(١٠٢) رسائل المستنصر: (١٣) و (٣٠): ص ٣، ٥٠٣ - ٥١٦: ابن خلدون. مقدمة ١ ص ٣٩٦.

(١٠٣) النعمان، مجالس. ١ ورقة ١١٣، غزالي: فضائح الباطنية، ص ٨: أنظر Anuales de l'Inst. d'Et.Or.6, Canard, 1942-4, p. 160. من الطريف أن نذكر هنا البرهان على صفاتهم العالية: فقد كان الخليفة المعز أول مخترع للقلم النباع، وكان يرمز به إلى (باطن العلم): فهو قلم يكتب به بلا استمداد من دواة، ويكون مداده من داخله، فإذا قلب في اليد ومال إلى كل ناحية، لا يبدو منه شيء من المداد، فكان الكاتب يجعله في كفه أو حيث شاء، دون أن يلمح اليد أو الثياب. ويقول المعز: (فيكون آلة عجيبة، لم نعلم أنا سبقتها إليها. دليلاً على حكمة بالغة لمن تأملها، وعرف وجه المعنى منها) أنظر. النعمان، مجالس. ١ ورقة ١٣٧ - ١٥٠.

(١٠٤) المقدمة، ١ ص ٣٥٥: أنظر. Die Renaissance: Mez. ترجمة أبي ريدة، ١ ص ١٢٠.

(١٠٥) مجالس. ١ ورقة ١١٢ - ١١٤.

(١٠٦) مقريزي، خطط. ١ ص ٤٧٠، ٨ ص ٩٠.

(١٠٧) رسائل المستنصر: (٢) ورقة ٧: (١٤) ورقة ٦٨.

(١٠٨) مقريزي، خطط. ١ ص ٤٤٦، ١٢ ص ١٦.

(١٠٩) Nasir i Husran Sefsr Nameh, trad, Schefez. P.141.20-22: Nasir i Husran

(١١٠) ابن ميسر. ص ٤٤. ٤٦. ٥٥، مقريزي، خطط. ١ ص ٤٨٠، ١ ص ٢ - ١٩٨: ص ٣، ٥٢٣.

(١١١) أنظر: Streitschrift P.6 Goldziher (مقدمة)

فنسب المتطرفون منهم العقيدة الروحية للإمام إلى أصل خارجي عن الدين، لتوافق العقائد التي ظهرت نتيجة للفلسفة الأفلاطونية الحديثة^(١١٢). فكانوا يؤمنون برجعة الإمام بعد موته؛ ويؤمنون (بالتجسيم)؛ ففي رأيهم، أن الإله حل في جسم الإمام^(١١٣)، أو هو (الحلول) نفسه، كما تقول الدرزية. فيؤكد حمزة - أحد دعاة الدرزية- في رسائله عن الحاكم هذا الرأي بقوله: إن روح آدم التي هي من مادة عليا، انتقلت إلى علي بن أبي طالب، ثم انتقلت بعدئذ من علي إلى سلف الحاكم. ويزعم هذا الداعية أيضاً، أن الحاكم خليفة-إله، لأن الله حل في ذات الحاكم البشرية^(١١٤). كذلك تعدى بعض دعاة الفاطميين غير الأمناء في رواياتهم عن الإمامة الفاطمية- الحدود في ذكر الصفة الروحية للأئمة الفاطميين^(١١٥)، فنسبوا إلى خلفاء الفاطميين القدرة على معرفة الغيب والأسرار^(١١٦).

وقد احتج خلفاء الفاطميين على هذه الادعاءات المبالغ فيها، واعتبروا ادعاءات الدرور أو غيرهم من الدعاة هرطقة^(١١٧)، وأوحوا إلى بعض المؤلفين المحققين، بتصنيف كتب لتنقية العقائد الفاطمية من مثل هذه الأغلاط^(١١٨)؛ فليس ثمة ريب في أن العقيدة المستقاة من الأئمة الفاطميين أنفسهم، تميز بين الأنبياء والأئمة. فهؤلاء لا يأتيهم الوحي الإلهي، ولا يعلمون الغيب وما تخفي الصدور، وأنهم مثل كل البشر^(١١٩). ونجد استبشاع هذه الادعاءات في فقرة وردت في كتاب «المجالس والمسائرات»، يحمل المعز فيها على جرأة هذا الادعاء؛ فيوجه الكلام إلى النعمان، فيقول^(١٢٠): «إنه انتهى إليك والينا، أنا ندفع نبوة محمد وندعي النبوة بعده، وندفع سنته وشريعته، وندعو إلى غيرها، فلعن الله من قال بهذا وانتحلته وادعاه، ومن تقوله علينا، ورمانا به ونسبه إلينا». ثم يقول أيضاً: «فكيف ندعيها (النبوة) وندعي ما يصلي الله من ادعاه النار، ونقول بقول من أبطل نبوة جدنا محمد (صلوات الله عليه) من الكفار، والله سائل من قولنا من ذلك ما لم نقله، ومؤاخذه بقوله». وأخيراً يقول: «إن المنتسبين إلينا، المتقولين ما لم نقله، أعداء لنا، وأضر من عدونا المناصب لنا، المباين بعداوتنا».

وفي الحقيقة، إن الفاطميين كانوا يميزون دائماً بين مقام النبوة ومقام الإمامة^(١٢١)، ويدودون

(١١٢) انظر: Islam, p. 150.: Masse L. بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص ١٢.

(١١٣) ابن هاني، ديوان، تحقيق زاهد، ص ١٥؛ انظر Canard.

L'imperialisme des Fatimides et leur propaganda, Annales de l'Inst. d'Et.Or, 1942-47, p. 191.

(١١٤) رسائل الدعاة، ورقة ٦١، سيوطي، حسن، ٢ ص ١٤؛ قلقشندي، ١٣ من ٢٤٨؛ ابن تغري بردي، تحقيق Popper، ص ٦٩.

(١١٥) النعمان، دعائم، ١ ص ٥٨؛ مجالس، ١ ورقة ١١٥.

(١١٦) النعمان، مجالس، ١ ورقة ٧٨؛ دعائم، ١ ص ٥٨؛ كتاب الهممة، ١ ص ٥٣.

(١١٧) النعمان، مجالس، ١ ورقة ٣٧١.

(١١٨) تاج العقائد، ص ١٨.

(١١٩) النعمان، دعائم، ١ ص ٥٨.

(١٢٠) النعمان، مجالس، ١ ورقة ٣٥٨ - ٣٧١.

(١٢١) النعمان، كتاب الهممة، ١ ص ٣٩ من ١٣ - ١٤؛ ص ٤٥ س ٨.

عن الدين الإسلامي. ويمكننا أن نقارن السلطة الروحية للإمام - في العقيدة الفاطمية - بالسلطة الروحية للبابا في العقيدة الكاثوليكية.

وقد كان للإمامة الفاطمية زمام السلطة الزمنية، كما كان لها أيضاً زمام السلطة الروحية الدينية؛ فقد أقيم منصب الإمامة: لتخلف النبي في حراسة الدين وسياسة الدنيا. ويعبر الإمام الرازي عن هذه الفكرة بقوله: إن الإمامة هي حكم الدين والدنيا^(١٢٢).

ولما كانت الإمامة الفاطمية وريثة النبوة، فقد أسبغت عليها صفة القدسية. فالإمامة هي ظل الله في الأرض، وهي صورة لفكرة قديمة مؤداها: أن الدولة والدين توأمان. فكان الإمام الفاطمي يشبه ملوك مصر القدامى: أو ملوك الفرس، وكان طبيعياً أن تتجمع كل السلطة في يده، وأن تأخذ مظهر الحق الإلهي المقدس. فكانت سلطة الخليفة واسعة^(١٢٣)، مثلما كان موجوداً في معظم دول العصور الوسطى؛ فهو يقوم بدور هام في كل الأمور، ويبدى رأيه في كل المسائل. ويهيمن بنفوذه على كل دقائق الأمور التي تتعلق بالسياسة، ويستقبل رسل الملوك، ويدير دفة الأمور الحربية. كذلك كان موظفو الدولة مسؤولين أمامه، فهو يفوض سلطته إلى عدد كبير من الموظفين: وزراء، وولاة، وقواد، وقضاة، ودعاة، وغيرهم من أرباب الوظائف؛ فكانت سلطة هؤلاء مستمدة من سلطته. التي لا يمنحها إلا للذين حازوا ثقته، وبرهنوا على إخلاصهم الشديد لعقيدة الدولة.

ولكن لم يمنع ذلك، بعض كبار أرباب الوظائف، من التحكم بنفوذهم في سلطة الإمام المقدسة؛ فقد وجد وزراء سيف تدخلوا بنفوذهم في تولية الأئمة: بحيث أصبح هؤلاء العوبة بين أيديهم. على أن ازدياد ضعف الإمام، أدى إلى زيادة نفوذ الوزراء، ومن ثم فإن سلطة الإمام الزمنية قضى عليها نهائياً.



(١٢٢) Le Califat dans la doctrine de Rassid Rida, p. 15.; Laoust.

(١٢٣) Les Statuts gouvernementaux au regle de droit: Faguan public et administrative (١٢٣) (al-Mawardi). P.2.